حول بيت لأبي نواس ...!

للأستاذ عباس حسان خضر

مات ابن الحجاج وأخوه في يوم واحد ، وكان اسم كل منهما محمداً ، فقال : « يا لله ! محمد ومحمد في يوم ! » فكرر محمداً ، ولو قال : « محمدان في يوم » لما أدى المعنى الذي أداه التكرار ، فأحد المحمدين ابنه والآخر أخوه ، وهو بالتكرار يفصّل الفاجعة فيهما ، وما تقوم التثنية بنقل هذا الشعور إلى السامع ، أو قل ما شئت في التعليل ، ولا أشك في أننا متفقون على حسن التكرار هنا ، وأن التثنية لا تغني شيئاً .

وقال أبو نواس :

ودار ندامى عطلوها وأدلجوا بها أثر منهم جديدٌ ودارسُ
مساحب من جر الزقاق على الثرى وأضغاث ريحان جنيّ ويابس
حبست بها صحبي فجددت عهدهم وإني على أمثال تلك لحابس
ولم أدر من هم غير ماشهدتْ به بشرقيّ ساباط الديار البسابس
أقمنا بها يوماً ويوماً وثالثاً ويوماً له يوم الترحل خامس

أفترى التكرار في البيت الأخير حسناً كذاك ، أم تراه معيباً لا غناء فيه ؟

وقع نظري في كتاب « البلاغة الواضحة » لمؤلفيه الأستاذين علي الجارم بك ومصطفى أمين بك على هذا البيت (أقمنا بها . الخ) مسبوقاً بهذه العبارة : « بيّن ما تراه في الأبيات الآتية من العيوب البلاغية » ومتلوّاً بأبيات أخرى[1] . تأملت هذا البيت المتهم بالعيوب البلاغية وهو ماثل في قفص التمرينات المطلوب حلها ... فلم أرَ به ما يريب ، ثم رجعت إلى نفسي وكدت أتهم عقلي بالقصور ، وتخيلت أني طالب أُلقي إليه بهذا السؤال في الامتحان ، فهالني الصفر الأحمر يسقط عليّ من قلم الممتحن المهيب ... ثم لمحت رقماً بين قوسين على آخر البيت ، فتبعته إلى الهامش حيث وجدت به : « يريد أنهم أقاموا ثمانية أيام ، عدّ منها ثلاثة في الشطر الأول ، ثم أضاف إليها خمسة في الشطر الثاني ، لأنه يقول إننا أقمنا بعد ثلاثة الأيام الأولى يوماً له يوم الرحيل خامس أي خمسة أيام أخرى » فذهب عني الفزع وقلت : وهذه مسألة أخرى أرى الخطأ فيها ظاهراً ، مما يطمعني في تبرئة البيت مما يراد لصقه به من العيوب البلاغية .

ويلحق بهذا الكتاب القيم — رغم ما نحن بسدده — كتاب اسمه « دليل البلاغة الواضحة » لنفس المؤلفين ، يشتمل على حل التمرينات التي تضمنها كتاب « البلاغة الواضحة » . فلا بد أن يكون به بيان « العيوب البلاغية » الموجهة إلى بيت أبي نواس ، وهناك رأيت « في هذا البيت تكرار غير مفيد ، فإن أبا نواس يريد أن يقول إننا أقمنا بها ثلاثة أيام ، فكرر كلمة (يوماً) تكراراً معيباً لا غرض فيه ، ولا قصد منه ، والتكرار إذا لم يورث اللفظ حلاوة ، ولم يكسب المعنى طلاوة كان ضرباً من السخف والعيّ ، والعجب لأبي نواس يأتي بمثل هذا البيت السخيف الدال على العيّ الفاحش مع أبيات عجيبة الحسن تتقدم هذا البيت[2] » .

ووجدت بالهامش تعليقاً على ثمانية الأيام ما يلي : « في المثل السائر أن أبا نواس يريد أن يقول إنهم أقاموا بها أربعة أيام » .

وفي كتاب « المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر » قال مؤلفه الشيخ ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الموصلي الشافعي في باب التكرير : « وعلى هذا الأسلوب (يشير إلى ما سماه التكرير في اللفظ والمعنى غير المفيد) ورد قول أبي نواس :

أقمنا بها يوماً ويوماً وثالثاً ويوماً له يوم الترحل خامس

ومراده من ذلك أنهم أقاموا بها أربعة أيام ، ويا عجباً له يأتي بمثل هذا البيت السخيف الدال على العي الفاحش في ضمن تلك الأبيات العجيبة الحسن التي تقدم ذكرها في باب الإيجاز وهي : ودار ندامى عطلوها وأدلجوا ... » .

ولقد وددت لو وافق صاحبا « البلاغة الواضحة » مؤلف « المثل السائر » في عدد أيام الاقامة بدار الندامى ، وخالفاه في تهجين البيت ، ورميه بالسخف والعي ... ولكنهما عكسا ، فعارضاه في الأولى ، وأخذا بالثانية ، وإن كان أدق منهما في

(١) ص ٢٥٧

(١) ص ١٣٢

عجبه من وقوع هذا البيت فى ضمن أبيات عجيبة الحسن وعجبهما من وقوعه بعد أبيات عجيبة الحسن ، لأن الأبيات التالية له لا تقل حسناً إن لم تزد عن التى تتقدمه ، وها هى ذى :

تدور علينا الكأس فى عسجدية
حبتها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفى جنباتها
مها تدّريه بالقسىّ الفوارس
فللخمر ما زرت عليه جيوبهم
وللماء ما دارت عليه القلانس

قال الجاحظ : نظرنا فى شعر القدماء والمحدثين ، فوجدنا المعانى نقلت ، ورأينا بعضنا يسرق من بعض إلا قول عنترة : « وخلا الذباب بها فليس ببارح » وقول أبى نواس : « قرارتها كسرى ... الخ » .

وأرجع إلى جادة البحث فأقول : إننى أخالف مؤلف المثل السائر وصاحبى البلاغة الواضحة فى الرواية على بيت أبى نواس ورميه بالتكرار المعيب ، وأخالف الأخيرين فى أن أبا نواس وصحبه أقاموا بدار الندامى ثمانية أيام ؛ وأقدم الكلام على المسألة الثانية لأفرغ للأولى .

الشطر الأول : « أقمنا بها يوماً ويوماً وثالثاً » يدل على ثلاثة أيام قطعاً ، أما الشطر الثانى « ويوماً له يوم الترحل خامس » فيقول صاحبا البلاغة الواضحة إنه يدل على خمسة أيام أخرى ، وإنى لأعجب كيف يقولان ذلك وهما معدودان فى الصف الأول من رجال اللغة العربية فى هذا العصر ، وهل يستقيم فى العربية أن تقول — على رسم ذلك — : أقمت يوماً فى الاسكندرية له يوم السفر خامس ؟! إنهما يعلمان أن صيغة (فاعل) من العدد لا تكون فى مثل هذا الاستعمال إلا مُصيِّرة ما تحتها بدرجة واحدة مساوياً للعدد الذى اشتقت منه ، أو دالة على بعض العدد الذى اشتقت منه ، فيقال خامس أربعة وخامس خمسة ، ولا يقال خامس واحد أو اثنين أو ثلاثة . وعلى هذا لا يدل قوله (ويوماً له يوم الترحل خامس) إلا على أن هذا اليوم هو الرابع ويوم الرحيل خامسه ؛ فالبيت يدل على أنهم أقاموا أربعة أيام وسافروا فى اليوم الخامس .

أما الحلة العتيقة التى حملها الشيخ ضياء الدين على التكرار الوارد فى بيت أبى نواس وتابعه فيها صاحبا البلاغة الواضحة ، إذ عدّوه تكراراً معيباً سخيفاً ، وعجبوا من الإتيان به فى ضمن أبيات عجيبة الحسن — فإنى أرد هذه الحلة عن البيت ، وأريح العاجبين من عجبهم الذى لا محل له ، لأن البيت نفسه عجيب الحسن كإخوته ، وما كان لأبى نواس — وهو أبو نواس وقد واتاه الإبداع فى سائر الأبيات — أن يسف هذا الإسفاف بحيث يكون كل ما يريد أن يؤديه بهذا البيت أنهم أقاموا بالدار أربعة أيام أو ثمانية ويرتكب لتأدية هذا المعنى التافه ذلك التكرار الذى لا غرض فيه ولا قصد منه !

إنما يقول أبو نواس إن هذه الدار التى غادرها أهلها مخلفين بها آثاراً تدل على ما كان لهم بها من لذات الشراب وطيب العيش عرجنا عليها لنجدد عهد الراحلين عنها ، فأقمنا بها يوماً كان الحزم أن نرحل بعده ، ولكن طابت لنا الإقامة فمكثنا يوماً آخر ، وحلا لنا التمادى فى التمتع بلذة الشراب بهذا المكان فتلبثنا يوماً ثالثاً ، واستمرأنا الإقامة على هذه الحال فتراخينا يوماً رابعاً ، وفى اليوم الخامس اضطررنا إلى الرحيل .

فهل كان يمكن أن يؤدى هذا الشعور بغير ذلك التكرير ! وإن العائبين عليه ليريدون أن يقيموا من البيت جداراً مسموكا لا تنفذ منه أشعة ذلك الإحساس المعهود فى الحالات التى تستطيبها النفس وتتمنى دوامها . وأى تكرار يورث اللفظ حلاوة ، ويكسب المعنى طلاوة إن لم يكن هو هذا التكرار . . ؟

ولقد أتى أبو نواس بنوع آخر من التكرار إذ قال فى وصف صاحبته جنان :

والحسن فى كل عضو منها معاد مردّد

فليس هذا تكرارا فى اللفظ ولا فى المعنى ، بل المكرر الحال يرى معاداً مردداً فى كل عضو من أعضائها ، وهذا التكرار ليس كمثله إلا (تكرير) السكر ...

ويجرنا حديث التكرار إلى بعض المفارقات العجيبة فى هذا الباب ، فبينما تجد نسقاً منه لم يدفع إليه إلا الفن والحق ، إذا أنت ترى ما يشبه هذا النمق مقبولا مستساغاً

قال الجاحظ فى باب الى من « البيان والتبيين » :

« وتزعم بنو تميم أن صَعْصَعة بن تيمان قال فى حرب مسعود والأحنف : إن جاء حُتَات جئت ، وإن جاء الأحنف جئت ، وإن جاء جارية[1] جئت ، وإن جاؤا جئنا ، وإن لم يجيئوا لم نجىء!»

وأنت تعرف التكرير الذى احتلى به أسلوب الدكتور طه حسين بك ، والعجيب أن نحواً منه يشبه الكلام المعزوّ إلى صعصعة بن تيمان . وهاك أمثلة من مقال له عن كتاب (نابليون) تأليف إميل لودفيج فى مجلة الكاتب المصرى الصادرة فى أول اكتوبر الحالى :

« ولست من المعجبين بإميل لودفيج وفنه إعجاباً شديداً . ومصدر هذا فى أكبر الظن أنى لم أقرأه فى نصه الألمانى ، ومصدر هذا فى أكبر الظن كذلك أن بين خياله الألمانى البعيد وتفكيره الألمانى الملتوى وبين خيالى القاصر وعقلى العربى الذى يواجه الأشياء أكثر مما يدور حولها ، أمداً بعيداً ، ومصدر هذا فى أكبر الظن كذلك أنى حاولت أول ما حاولت أن أعرف لودفيج عن طريق كتابه عن حياة المسيح ، ومن طريق كتابه عن حياة جوت ، فلم أستطع أن أمضى فى الكتابين إلا قليلا ، ومصدر هذا آخر الأمر أنى لقيت لودفيج فى القاهرة حين زار مصر منشئاً لإنشاء كتابه عن النيل ، فلم أحد لقاءه ولم يحمد لقائى » ، وفى نفس المقال : « يظهرنا لودفيج على هذا كله وعلى أكثر جداً من هذا كله ، فى هذا الكتاب الذى لم يخلص للتاريخ ولم يخلص للقصص ، وإنما كان مزاجاً منهما » .

على أن بعض الناس لا يرتضون هذا التكرار الذى تشتمل عليه كتابة الدكتور طه حسين بك ، وغيرهم يعجبون به ، ويعدونه حلواً طلياً .

عباس حسن خضر

(١) حتات والأحنف وجارية أعلام رجال .

الأستاذ ساطع الحصرى

يقـــدم :

إلى المعلمين والمربين والوالدين والمفكرين

١ — آراء وأحاديث فى الوطنية والقومية

٢ — آراء وأحاديث فى التربية والتعليم

وهما خلاصة مطالعات ، وزبدة تجارب ، فى ترتيب منطق ، وأسلوب سهل ، وصورة مشوقة ....

يطلبان من إدارة الرسالة ومن سائر المكاتب الشهيرة

٣٠ قرشاً للأول و ٣٠ قرشاً للثانى

عدا أجرة البريد

كتب فى مختلف الفنون والآداب .

شعر الحرمان : شعراء المصر الذين وقعوا فريسة الحرمان . أبو الوفا . ناجى . الدبب . الهمشرى ... ألخ ١٠ ص

كيف تعزف على العود بدون مدرس : أول كتاب من نوعه موضح بالصور التعليمية . ٣٠ ص

دائرة المعارف الروحية : أول موسوعة من نوعها عن العلوم الروحية والتنويم وتربية الإرادة والشخصية . ألخ ١٠ ص

الحضارة النوبية الحديثة : سياسى . تاريخى . علمى . جغرافى . اجتماعى ٢٠ ص

عقدة النقص (تحت الطبع) : معناها وطريقة علاجها . أقوى كتاب فى هذه الناحية . ١٠ ص

يضاف ٢٠ ٪ من هذه الأثمان لطلبات الخارج .

وتطلب من (مصطفى محرم مدير دار التعاون الصحفى بشارع مجلس النواب رقم ٧ بالقاهرة . تليفون ٥٧٣٨١)